

المؤرخ التونسي هشام جعيط ورؤيته للمدينة الاسلامية (الكوفة انموذجاً)

أ.م.د. محمود صالح سعيد
جامعة الموصل / كلية الاداب / قسم التاريخ

المقدمة

يعد المفكر والمؤرخ هشام جعيط ^(١) من أبرز المثقفين والباحثين التونسيين العرب المشغولين باشكاليات الفكر العربي. إذ ينتمي الى جيل ثقافي عربي متنور ومنفتح نضج مبكراً وتميز بافاقه المعرفية وتنوع قراءاته وثقافته وتوجهاته الفكرية وانغماسه بالهموم القومية والقضايا الوطنية والشعبية، ومواجهة الغزو الثقافي وخلق ثقافة عقلانية متورة مستوعبة حضارياً لمفردات ثقافات انسانية أخرى.

ولج هشام جعيط عالم البحث والكتابة التاريخية متسلحاً بما يملكه من فكر ووعي وثقافة ومنهجية نقد، خاتماً بالكثير من الأسئلة التي تفتح على مزيد من النقاش والجدل الفكري والثقافي والسياسي، فهو ومنذ سبعينيات القرن المنصرم وهو يسعى الى تجديد البحث العلمي العربي وتطوير الحوار بين العقل والتاريخ ، وبين النقد التاريخي والنصوص المتناقضة ، موضحاً أن العالم العربي الاسلامي بحاجة ماسة الى حداثة العقل والعلم والتقدم والثورة وقيم التنوير والحرية والديمقراطية، ودفع الحراك الاجتماعي وتسريع دينامية التقدم والتطور العلمي ^(٢).

وضع هشام جعيط كتبه وأبحاثه بالفرنسية التي ترجمت فيما بعد إلى العربية وإلى لغات أخرى ، وله الكثير من البحوث الأصلية الواسعة العميقة التي يتجه فيها نحو اتجاهين، الأول اتجاه فكري وفلسفي يعالج فيه القضايا الكبرى المطروحة على الضمير العربي في السياسة والمجتمع والدين، كما في كتابه " الشخصية العربية الاسلامية والمصير العربي "، والثاني : اتجاه نحى فيه منحى المؤرخ الصارم للإسلام المبكر ، كما في كتابه (الكوفة ، نشأة المدينة العربية الاسلامية) . وفي هذا الكتاب يستعيد تاريخ الفتح العربي ومعاركه، ويتطرق الى تخطيطات المدينة ونظرة الاستشراق الى المدينة الاسلامية، وصولاً الى "مصير الكوفة وهويتها".

وهكذا فإن المؤرخ هشام جعيط يمثل اطلالة عربية مشرقة على الفكر الغربي المعاصر ، فبالإضافة الى امكانياته اللغوية (حيث يتقن من اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية فضلاً عن العربية) فقد اتسمت كتاباته بالروح العلمية ، وتوخي الموضوعية في الطرح ، والمنهج النقدي التحليلي ، متجاوزاً اسلوب السرد القصصي المحض الى محاولة سبر اغوار المصادر التاريخية ، ونقدها للتعرف على العلل التي تقف وراءها ، والمحركات الديناميكية الاساسية التي استفزت احداثه .

قدّم جعيط مجموعة من الدراسات التاريخية الاكاديمية المهمة عالج خلالها قضايا مفصلية من تاريخ الاسلام ، وكانت المدينة الاسلامية واحدة من ابرز الموضوعات التي عالجها من خلال مؤلفه الضخم (الكوفة : نشأة المدينة العربية الاسلامية) والمؤلف من نحو (٥٠٠) صفحة . وهو اذ اختار الكوفة عنواناً لأبرز كتبه انما هو تعبير صادق عن اهمية هذه المدينة ووعي لدورها الحضاري ، كونها تمثل اول مدينة اسلامية يؤسسها العرب خارج نطاق الجزيرة العربية ، فقد تأسست سنة (١٧هـ / ٦٣٨م) .

قدّم جعيط مدينة الكوفة من زوايا عدة : إذ ناقش مسألة الفتح الاسلامي ، وتأسيس الكوفة كونها تمثل دار هجرة ثانية بعد المدينة المنورة اكثر من كونها مستقر للفاحين ، كذلك قدم جعيط لموقف المستشرقين من المدن الاسلامية عموماً ومدينة الكوفة بشكل خاص ، بعد ذلك يبدأ ببحث التأثيرات الحضارية للمدن السابقة على الكوفة كبابل ومكة ، فضلاً عن التأثيرات الهيلينية بعدها ناقش الادوار الحضارية التي مرت بها الكوفة ، واسماها دور الاستقرار ودور التمدن ودور التطور ودور الاستكمال ، وبحث تاثيراتها السياسية ودورها التاريخي .

لم يكتف جعيط بمعالجة هذه القضايا بل اخذ يقدم رؤية مقارنة للمدن الاسلامية الاخرى فيقارن الكوفة ببغداد ، والكوفة بواسط والكوفة بمكة والمدينة والفسطاط والقيروان ، ويبحث في هويتها ، ووجهها المدني ، وأبرز ساكنيها من القبائل العربية الاصلية واسهامات علماءها في الحضارة الاسلامية ، كل ذلك من زاوية مقارنة مع بقية المدن . كل هذا وهو يراجع المصادر الاساسية وكتب التراث وآخر ما انتجته الثقافة

الغربية من اصدارات اجنبية ومخطوطات عربية ، فضلاً عن اطلاعه على الاثار والعمارة وكتب التاريخ المعاصرة لتاريخ هذه المدينة .

لقد جمع هشام جعيط بين الرصانة العلمية والحماس للقضايا الفكرية، وبحسه العربي والاسلامي العميق وتكوينه التاريخي الصميمي وهو مؤهل للكتابة في ميادين الدين والسياسة، بعيداً عن التقليدية كما عن أي فكر تحديثي تبسيطي، ولا شك أن أعماله ومؤلفاته البحثية تثري المكتبة العربية التاريخية التي ما زالت هزيلة ، وتندرج في مسار جعيط الطويل الدائب بحثاً عن الهوية وتفتق الوجدان.

أولاً : أهمية المدينة الاسلامية عند هشام جعيط

يمكن ارجاع الاصل اللغوي لكلمة المدينة الى كلمة (دين) وان لها اصلاً ارامياً وعربياً فكل المواضع التي اطلق عليها لفظ مدينة كان عليها حكام أو ملوك وفيها صيغ قضائية ودينية وادارية وسياسية وذلك تمييزاً لها عن القرية^(٣).

والمدينة الاسلامية تمثل واحدة من أبرز مظاهر الحضارة الاسلامية ، إذ تمثل البوتقة التي انصهرت فيها كل الاشكال الحضارية والانشطة الثقافية والعلمية . ومما هو جدير بالاشارة ان نشأة المدن الاسلامية ارتبطت في اغلب الاحيان بعمليات الفتح الاسلامي أو هي نتاج لها ، إذ شكلت المدينة الاسلامية ركيزة اساسية على تخوم البلاد المفتوحة بمثابة معسكر ودار اقامة للسكان الجدد .

لذلك فالمراد بالمدن الإسلامية ما بناه المسلمون من المدن لأنفسهم، وهي غير ما افتتحوه من مدائن الروم والفرس. والمدن الإسلامية عديدة في العراق والشام ومصر وأفريقية والأندلس وغيرها ومنها ما لم يزل عامراً إلى اليوم كالبصرة وبغداد والقاهرة ومنها ما انقرض وعفت آثاره كالفسطاط والزهراء.^(٤)

وقد اتسمت المدينة الاسلامية بمجموعة من الخصائص العامة والصفات المشتركة فالجامع، و الساحة، والميدان، والسوق والفناء الداخلي هي الملامح الاصلية للمدينة العربية الاسلامية، و بمرور الزمن و مع التوسعات الكبيرة التي شهدتها معظم المدن الاسلامية، تأثرت هذه الملامح و تداخلت فيها استعمالات الارض بانماط مغايرة تمام عن النمط التقليدي^(٥).

والحقيقة أن هذا الكتاب، الذي لم يلق ما يستحقه من اهتمام لدى صدورهِ، ولا يمكن عده كتاباً عادياً عن مدينة عادية. بل هو من تلك الكتب التي تؤسس وتشتغل على لب الموضوع التاريخي الذي لا يكتفي بالسرد والوصف ليطلع باستنتاجات يغلب عليها الطابع الأيديولوجي كما اعتاد أن يكون هذا النوع من الكتب في الثقافة العربية المعاصرة. بل هو يبدو لنا أقرب إلى ما يدعو إليه «التاريخ الجديد» كما عبرت عنه مدرسة «الحوليات» الفرنسية^(٦)، من اهتمام بالتفاصيل وتوقف عند الأبعاد الاقتصادية والثقافية وضروب الحياة اليومية العائدة إلى الموضوع المؤرخ، وفي نوع من الصلة بين التاريخ والجغرافيا^(٧).

ثانياً : هشام جعيط ورؤيته الحضارية لمدينة الكوفة

طمح هشام جعيط في كتابة هذا الكتاب إلى أن يكون إحياءً لمدينة الكوفة ودورها الحضاري ، ذلك أنها تمثل أولى الحواضر العربية الكبرى^(٨)، زمنياً ، خارج الجزيرة العربية التي ولدت مع الفتح ، وكانت أحد المراكز الحساسة في الدولة الإسلامية العتيدة. أن الكوفة عند جعيط تمثل تاريخ الحضارة الإسلامية في أقدم تعابيرها وأهمها التي يُحكى عنها الكثير ويُعرف عنها القليل من حيث حياتها النابضة التي تتراءى في آخر المطاف مشيرة للخيال اليوم ، وكيف لا تثير مثل هذا الخيال مدينة عرفت كيف تكون خلال القرون الثلاثة الأولى من التاريخ الإسلامي- وقبل أن يبدأ دمارها على أيدي القرامطة ثم إهمالها على أيدي العباسيين-، مركز إشعاع فكري وأدبي وبخاصة لغوي، حيث أنها كانت مع توأمها البصرة، وانطلاقاً من جغرافيتها القرية من مناطق سكنى البدو من العرب الأقحاح، مركز انطلاق أولئك الباحثين في شتى الشؤون الفكرية من الذين كانوا يقصدون عرب الصحارى لكي يتعلموا على أيديهم قواعد اللغة وتواريخ الشعراء الأقدمين وتفاصيل الفكر والإبداع اللذين ارتبطا بتلك العصور التي دعاها المسلمون بـ «الجاهلية»^(٩).

لقد مثلت الكوفة في حقيقتها خزانة حضارة لا تضاهى إذ أنها وصلت عبر تطور اللغة وحفظ الأشعار والتلاحق بينهم وبين الأعراب إلى استعادة ذلك الإرث والحفاظ على جذوره العربية. عن هذا يحدثنا هشام جعيط في هذا الكتاب لكنه كأساس لأطروحاته

. ان الكوفة التي أسسها في الأصل أبناء قبائل جنوب الجزيرة العربية، لا سيما يمانيو الأصل منهم، أولئك الذين قصدوا بلاد السواد (العراق) في جيوش الفتح وأرادوا الاستيطان بها .

ينطلق جعيط في تاريخه لمدينة الكوفة من نظرة ناقدة حاذقة تعتمد أساليب البحث التاريخي ويستند الى معطيات مادية واثارية فضلاً عن المصادر الاصلية ويشغل على مئات المصادر العربية القديمة والحديثة، بخاصة منها تلك التي أرخت لتكون مدينة الكوفة متحوّلة مما يشبه المعسكر إلى تلك المدينة المزدهرة فكراً والتي أنجبت كباراً من الشعراء والمفكرين العرب ومنهم بالطبع أبو الطيب المتنبي^(١٠)

أن غاية جعيط الأساسية من كتابة مؤلفه عن الكوفة إنما كانت إقامة حوار حقيقي بين حضارة الكوفة العربية والحضارات التي تقدمتها كالبابلية والفارسية والهلنستية والرومانية . والحال أنه يظل متيقظاً للإسهام العربي الصرف، وهو يتخطى الكوفة ليقوم باستجواب البصرة وواسط وبغداد وصولاً إلى الانكباب على حركة نشوء المدينة الإسلامية ذاتها . والحقيقة أن في هذه العبارة الأخيرة يمكننا أن نجد مفتاح هذا الكتاب ككل حيث أن في تاريخ الكوفة كل المقدمات التي تؤشر إلى الولادة الخالصة للمدينة الإسلامية التي تولد لضرورات عملية من دون أن تقوم على بنيان سبقها. ومن هنا ما يبدو واضحاً كيف أن العرب الأقحاح الذين اختاروا المكان وهندسوه، إنما قسموه، أول ما فعلوا، انطلاقاً من توزيعاتهم القبلية. وهو أمر بالغ الأهمية يعكسه لنا المؤلف في خريطة- مفترضة- للتوزيع السكاني يوم التأسيس حيث قُسمت المدينة ذات الشكل المربع على النقيض من الشكل الدائري الذي تتخذه المدن عادة، إلى مجموعة من أحياء تحيط بالمركز الذي يشغله الجامع، المشترك والمركزي، إلى جانب القصر والأسواق.

ولعل أول ما نلاحظه في ذلك التقسيم عدم وجود تراتبية معينة بين عبس وقيس والأنصار ومحارب وكنانة وجهينة وعبد قيس وربيعة وكندة ومذحج وهمدان وغيرها من القبائل التي استوطنت الكوفة وبنتها عند التأسيس. ولعلنا لا نحتاج هنا إلى طويل بحث حتى نتنبه إلى أن معظم هذه الأقوام إنما أتت من اليمن وما يحاذيه، ما يدفع دائماً إلى التساؤل حول ما يمثله ذلك المخزون اليمني من البشر، خصوصاً إن نحن تذكرنا هنا

أن تلك الاندفاعة اليمينية الإسلامية نحو الشمال الشرقي ستوازيها بعد عقود قليلة من السنين اندفاعة يمنية أخرى نحو شمال أفريقيا ومنها نحو الأندلس حيث يمكننا أن نلاحظ بسهولة أن جذور كبار المفكرين الأندلسيين تعود إلى اليمن أيضاً. لكن هذا، وكما هو واضح، ليس موضوع هذا الكتاب وإن كان لا يفوت المؤلف أن يشير إليه. فموضوعه هو هنا بناء وسقوط تلك الحضارة العربية التي يتساءل منذ البداية عما إذا كانت معسكراً أم مدينة حقيقية، قبل أن ينتقل بعد قليل إلى دراسة مسألة التمدن والاستقرار وصولاً إلى اعتبار الكوفة نموذجاً في هذا السياق ليختم دارساً الوجه المدني لتلك المدينة التي يطمئن نفسه في الختام بقوله إن «ما من مدينة تنتهي أبداً من بنائها الذاتي لأن نبضات حياتها ترتبط بالمادة البشرية الموجودة داخلها»، فهل نحن أمام دعوة دائمة لعودة الكوفة^(١١)؟

ثالثاً : الجوانب الحضارية للكوفة وفقاً لرؤية جميعط

قدم جميعط في دراسته لمدينة الكوفة جوانب مختلفة لأبعاد هذه المدينة الحضارية واذا ما حاولنا رسم الخطوط العريضة لتلك الجوانب سيتضح ان دراسته تتسم بالشمول والعمق والابتعاد عن السطحية والسرد التقليدي متتبعاً المنهج الحداثي في دراسة التاريخ وهو منهج مدرسة الحوليات الفرنسية التي تركز على التفاصيل دون اهمال الخطوط العريضة للموضوع . ولعل ابرز تلك الجوانب هي :

- الفتح الاسلامي وعلاقته بنشأة المدن الاسلامية

يربط جميعط بين الفتح الاسلامي وعملية انشاء المدن الاسلامية ويرى ان هذه العلاقة طبقت على العراق اكثر مما طبق على اية جهة اخرى^(١٢). ووضحت الكوفة التي انشأت سنة ١٧ هـ رمزاً للعروبة الجديدة التي تختلف عن تلك العروبة التي جسدها مدينة الحيرة طيلة القرون الماضية . ومن هذا المنطلق يرى جميعط في مدينة الكوفة مدينة اسلامية ذات بعد عروبي مغاير لمدينة الحيرة من حيث الاهداف ، فالحيرة كانت تمثل منطقة متقدمة او بمثابة دولة حاجزة (Buffer state) بين الدولة الساسانية والدولة البيزنطية أي ان دورها ثانوي ، وان هدف انشاءها كان حماية الساسانيين من هجمات البيزنطيين اما الكوفة فوضعها مختلف ، فهي مدينة تأسست كشبه معسكر ومقر هجرة ثم تصبح

عاصمة للدولة الاسلامية . وهنا يصير جعيط على ان تاسيس الكوفة لم تكن لاغراض عسكرية بحته بل شبه عسكرية .

فاختيار الكوفة بوصفها انموذجاً للمدينة الاسلامية كان اختياراً ذو نتائج كبيرة ذلك ان كان بداية لتحكمه في بنية الحضارة الاسلامية ، حيث ارتبط نشأتها بالعمل العسكري ومثلت احدى الحواضر الجوهريّة وان رجالها ساهموا في انشاءها وتوسيعها والمحافظة ، عليها فالجيش المقيم في الكوفة لم يكن مجرد حامية كما في الثغور بل قوات جاءت لتستقر دون ابداء اية نية للعودة^(١٣).

شاركت مدينة الكوفة بقسطها من التاريخ العربي وفي صميم مشاكل الدولة العربية الاسلامية فكانت مسرحاً لأعظم الحركات على اختلاف دوافعها وارهاساتها^(١٤).

يرى جعيط ان الكوفة مرت بمراحل عديدة اثناء تشييدها فحدد مدة خلافة عمر بن الخطاب (١٧-٢٣ هـ / ٦٣٨-٦٤٣ م) وولاية زياد بن ابيه (٥٠-٥٣ هـ / ٦٧٠-٦٧٢ م) وعدهما مدتان رئيسيتان ، ومن ثم ولاية خالد القسري (١٠٥-١٢٠ هـ / ٧٢٣-٧٣٧ م) والعصر العباسي الأول (١٣٢-١٩٧ هـ / ٧٤٩-٨١٣ م) ، والعصر العباسي الثاني وهي تمتد مدة طويلة (١٩٧-٣٣٤ هـ / ٨١٣-٩٤٥ م) ، وهذه الحقب كما يقول جعيط تنسجم تماماً مع ما توصل إليه علم الآثار من نتائج ، حيث جاء علم الآثار مؤيداً للتاريخ في اصطفاء العصر الأموي عصباً أساسياً في وجود الكوفة ولم يكن ذلك على الصعيد المعماري فحسب بل على كافة الصعد ، بيد ان العصر العباسي شهدت الكوفة هجرة الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية الى بغداد وتراجع مركز الكوفة . أما ما يخص المدة الاولى والتي تنتهي باستشهاد الخليفة علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) فان الكوفة مثلت القاعدة في هندسة المدينة والاساس . حيث رسم هذا العصر بنية وجود الكوفة ، فالكوفة قبل الامويين كانت اكثر تاريخية من الكوفة في عهد الامويين التي صارت مهمشة لكنها اكثر تاريخية من الكوفة في العصر العباسي^(١٥).

- موقف جعيط من الرؤية الاستشراقية للمدينة الاسلامية

وفيما يخص رؤيته لموقف الاستشراق من المدينة الاسلامية فانه ينتقد الرؤية الاستشراقية للمدينة الاسلامية ، لان الرؤية الاستشراقية لم تنظر الى مسألة تطور المدن الاسلامية

واسباب هذا التطور ، ولأنهم لم يتمعنوا في اوضاعها ، أو أنهم فضلوا دراسة العصور اللاحقة على العصور المبكرة لنشأة المدينة الاسلامية وتطورها^(١٦).

ووفقاً لذلك يحاول جعيط تصحيح العديد من الفرضيات الاستشراقية المسبقة من ذلك تلك الفرضية التي يعتنقها قسم من المستشرقين والتي تفترض تشبه المدن الاسلامية بالمدن القديمة اليونانية والفارسية والبابلية والبيزنطية ، وبالتالي هي مدن بدون ذات أو ان هذه المدن التي تأسست في العصور الاولى للاسلام تمثل ارادة شخص او مجرد عمل اعتباطي غير ممنهج أو في اقصى حد تشكل استثناء في تاريخ الاسلام ، فتكون هذه المدن مجرد مدن اميرية او مقراً للقصر ومرتبطة بوجود اسرة حاكمة أي انها مؤقتة ومفتعلة^(١٧) وينتقد جعيط هذه الآراء ويرد عليها بالاكيد على ان نشأة الكوفة جرى بعد عملية تخطيط لفضاء المدينة وتوزيعها بين مركز سياسي ديني وبين حزام للسكن وتهيئة مرتبة لمناهج الاتصال . فبعد عملية معاينة وانطلاقاً من تحليل دقيق للمصادر يظهر بجلاء ان تخطيط الكوفة جاء بعد عملية التمصير مباشرة والتمصير مفهوم يستند الى مشروع اقرار مجموعة بشرية في تجمع سكني مهما كان شكله ، ويؤكد جعيط أنه لا يرى هنا ما يشبه المعسكر ، فيقول ((إذ لا يمكن وصف هذا الجيش بمفاهيم معهودة كأن نقول بأنه جيش نظامي دائم وجهاز لدولة وجدت قبله ، ينفذ سياستها التوسعية ، بل الامر يتعلق بعناصر قبلية كاملة هاجرت بأسلحتها وامتعتها ونساءها واطفالها ، وكان لهم حرية الاختيار ، ولم تقم الدولة إلا بتنظيم هذه العناصر ، فعرضت عليهم بناء المستقبل))^(١٨).

وهكذا ، وبخلاف الرؤية الاستشراقية يرى جعيط ان سنة ١٧ هـ تمثل سنة انفراج وتنظيم للمكاسب واقامة هياكل المستقبل ، فقد كان هم الفاتحين الجدد ان يجدوا موطناً للاستقرار وداراً للهجرة ووطناً يحققوا حلمهم بالاستقرار ، بمعنى ان يعودوا الى الحياة المدنية مع بقاء الخيار العسكري قائماً ، لكن دون صرامة الجيوش ، فكانت فترة موجزة تم تجاوزها بسرعة فظهرت رغبة ملحة للاستقرار ابداءها المقاتلون فحل دور التخطيط سريعاً . . .

ويخلص جعيط بعد مناقشته لآراء المستشرقين الى تقرير القول بأن الكوفة ليست معسكراً تحول ببطء إلى مدينة مخططة تحسن بناؤها بمقتضى تصورها الأول وبالتالي فإن المدينة

بمعناها الكامل اقيمت في عهد سعد بمناهجها وخططها وهكذا تبدو الكوفة عند جعيط بمثابة حلقة اولى من سلسلة هائلة من الانشاءات جدت في القرن الأول والقرن الثاني للهجرة وفي بلاد الرافدين اكثر من غيرها^(١٩).

- تأثيرات المدن السابقة على الكوفة

يعتقد جعيط ان ثمة تعددية في انماط المدن في الشرق بين مؤثرات هيلنستية كمدينة سلوقية أو شرقية صافية كمدينة بابل . ومن هذا المنطلق يجري جعيط مقارنة حضارية بين مدينة الكوفة ومدينة بابل رغم ان الفجوة تفصل بينها لأكثر من ألف سنة ، فبابل تمثل التجسيم الاعلى لنموذج بلاد الرافدين التي اجملت كافة المكاسب الحضارية للشرق المركزي في صفائه وهي محور مشع ضمن كوكبة من مدن بلاد الرافدين كاشور وخورسباد وكركوك ، فكانت بابل مربعة الشكل مثل الكوفة والبصرة واسعة الشوارع مرتبة . وكانت تستخدم في البناء اللبن والاجر ، وكانت مدينة ومعبد ولها اراضيها الخاصة ومخازن حبوبها كما هو الحال بالنسبة لدار الرزق في الكوفة حيث توجد عناصر متشابهة في بابل ما نجده بالكوفة على المستوى الطبوغرافي وحتى على مستوى الوظيفة المدنية فمثلاً عرض الشوارع والتخطيط حسب الاتجاهات الاربعة واستقامة تظهر بوضوح اكبر ضمن المقارنة بالكوفة الاولى .

إن المؤثرات البابلية كما يرى جعيط تسربت في بناء الحضارة الاسلامية بالكوفة والبصرة وبغداد ذلك ان المصادر تتحدث بوضوح عن دور شخص من الحيرة أو من همذان يدعى رَوْدَبَة (الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٨) وقد ظهر هذا التأثير في البنية المربعة الشكل في مخطط الكوفة التي ليست بالمستطيلة كما في مدن سلوقية ولا بالمستديرة كما في مدينة طيسفون^(٢٠).

كما يصف مدن الشام بأنه عالم يتقبل كل ما يرد عليه وبين عالم بلاد الرافدين العريق في القدم والذي ينشأ فيه النموذج الشرقي وبعكس مصر التي شيدت حواضر فاقدة للاحزمة المحصنة أما بلاد الرافدين فإن مدنها تمثل مراكز للعظمة والحرب^(٢١). بيد ان الكوفة كما يرى جعيط اقتبست كثيراً من اليمن وان ارث اليمن انتقل إلى الكوفة لا سيما وان اليمنيين هاجروا بكثرة الى الكوفة واستوطنوها^(٢٢). اما ما يخص تأثيرات

فارس على الكوفة في عملية انشاءها الاولى فيؤكد أنه ((لا اسلوب التخطيط ولا بنية الفضاء الكوفي الاول يدوان مقتبسين من الارث الفارسي ، فالكوفة كانت مربعة الشكل وليست مستديرة كأصفهان وعلى الرغم من مشاركة بنائين من فارس ، وفي العصر الاموي فسوف يظهر الايوان البارثي - الساساني كواحدة من العناصر الاساسية لبنية القصر ...))^(٢٣).

أما ما يخص مكة المكرمة فيرى ان تقسيمها الى ارباع يشبه ارباع مكة . أما المدينة المنورة فيجدها نموذجاً لكافة مدن الحضارة الاسلامية حيث المسجد أولاً وهو مجاور لمقر الحكم بالنسبة للكوفة في حين كان مركز الحكم في عصر الرسالة المسجد نفسه بينما الحكم في الكوفة يمارس في المسجد ايضاً إلى جانب القصر حيث تتجمع الأموال والقوى ، لكن الفرق ان الكوفة تواجد العامل السياسي والديني في نوع من جدلية التواصل والانفصال في حين كانت الوحدة تامة في المدينة زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع تفوق المسجد على الدار ^(٢٤) .

- التمددين والاستقرار ذروة الكوفة عند جعيط:

يؤكد جعيط على مسألة اكتساب الكوفة لوجهها الحقيقي في العصر الأموي أما قبله فلم يظهر إلا أشياء قليلة وكذلك الأمر بالنسبة الى العصر العباسي الذي لم تشهد سوى عملية تجميلية أو ترميمية وهذا ما اثبتته علم الآثار ، لذا بقيت الكوفة وحدة مدنية إلى نهاية العصر الموي فظهرت مجموعة من المدن الاميرية تحيط بالكوفة الحقيقية فقد ظهرت مدينة ابن هبيرة والهاشمية شرقاً والرصافة إلى الجنوب الغربي فقد كان هناك مسعى لدى السلطة الأموية لتأكيد السلطة وهيبة الدولة لا سيما في اثناء ولاية زياد ^(٢٥) .

وقد استند في تحليلاته عن الكوفة الى مصادر اساسية كالطبري والبلاذري في فتوح البلدان وياقوت الحموي كما ضعف رأي المستشرق ماسينيون وبقية المستشرقين حول الموضوع ، ولم يكتف بذلك فقد استند الى معطيات علم الآثار اثناء حديثه عن مكتشفات علم الآثار لقصر الامارة في الكوفة حيث اكد انه كشف عن ثلاث مستويات المستوى الاول مطابق لما بني في عهد سعد أما المستوى الثاني ففي العصر الاموي ويعدده

الاهم أما الاخير فهو في العصر العباسي الذي لم يكن سوى ترميم لما تم انجازه في عهد زياد (٢٦).

إن المدة التي اتت بعد زياد إلى ثورة الاشعث بن قيس والتي امتدت خمسة وعشرون سنة تقريباً استقر فيها النسق الاجتماعي على الرغم من الازمات السياسية التي انتابتها ، فكانت مدة طويلة صلبت خلالها المدينة واكتسبت مظهر الرشد ، فقد سدت الثلمات في كل مكان دون ان تمحى البنية الاصلية لطرق المرور وبالمحافظة على الفضاءات الخالية فكثف السكن وضائق الشوارع ونزعت المدينة الى اسلوب المتاهة ، ولم تمنع كل هذه التدابير ان تبقى الطرق الكبرى الاولى ، فبقيت في الجملة الكوفة الهندسية وبقيت اجهزتها الاصلية الجامع والقصر المحصن حيث اتجه كل شيء اليهما وعمرت الدور وخلف ذلك تبدأ الطرق الكبرى الفاصلة بين الخطط التي كانت الشوارع تحترقها (٢٧).

وحاول ان يحدد خارطة توزيع سكن القبائل في الكوفة وامكن استقرارها فاستند الى المعلومات التاريخية الواردة في اثناء ثورة المختار وثورة الاشراف واستنبط من خلالها توزيع القبائل وتحديد اماكن اقامتهم ، كذلك استند في تحديد بعض المعالم الطبغرافية للكوفة من احداث تاريخية كحركة شبيب الخارجي سنة ٨٦ هـ وهو بمثابة استطلاع ثان لأهمية الكوفة وخصائصها الطبغرافية حيث يؤكد جعيط ان اقتفاء اثر حركة شبيب الخارجي افادت في الاحاطة بالتركيبة الطبغرافية للكوفة حيث عمقت هذه المعلومات الواردة عنه الحركة من المعرفة بمناطق محددة من الكوفة كمنطقة السبخة والجسر ودار الرزق وملاحظات مهمة عن السكك . فيخرج جعيط من خلال استقراء المصادر الى حصيلة تصور تشير إلى مجموعة ملاحظات قيمة يمكن اجمالها بالاتي :

- ينبغي التمييز بين الكوفة بالمعنى الدقيق - المركز والحزام السكني - وامتداداتها المباشرة التي من المفروض ان تكون خارج السور .
- تبدو الكوفة كثيفة العمران وتشكل الدور المتلاصقة جداراً لا يمكن تجاوزه بالنسبة للاطراف وذلك لتلاحمها وامتدادها .

- ان التحكم في افواه السكك اصبح عنصراً حاسماً وفعالاً دائماً للدفاع ويعتقد جعيط انه لم يكن يوجد أي جهاز تحصيني بهذه المداخل كالابراج ونحوها فكان المدافعون يجتمعون على سطوح الدور او يكمنون بمدخل السكك^(٢٨) .

-الكوفة بصفتها نموذجاً لبقية المدن الاسلامية :

ثم يختم جعيط حديثه عن الكوفة بوصفها نموذجاً لبقية المدن الاسلامية وفيهذا الصدد يقول انه اذا ما اتفقنا ان الكوفة كانت حاضرة منذ البداية ولكن ما هو النموذج الذي جسده بالنسبة لكل مدينة اسلامية مقبلة ، وهنا يقوم جعيط بتقديم نماذج عن تأثير الكوفة على بقية المدن الاسلامية وفي هذا الصدد يستقرأ المصادر القديمة والحديثة فالبصرة اختطت على نمط الكوفة وكذلك اسواق بغداد قلدت اسواق الكوفة من حيث الهندسة المعمارية والوظائف^(٢٩) .

ويخلص جعيط كلامه عن الكوفة بالقول ان اهميتها تكمن اكثر من غيرها من المدن بانها تمثل لحظة عبور وتحول من العروبة القديمة الى الاسلام المنظم ، وهي لحظة ذات اهمية مؤكدة بالنسبة للمؤرخ ومحيرة اطلاقاً بالنسبة للخيال العادي^(٣٠) .

الخاتمة

أظهرت دراسة جعيط للمدينة الاسلامية انها دراسة تتسم بالعمق والموضوعية . كما اظهرت انه اتبع المنهج التحليلي في وصف طوبغرافية المدينة وطبيعة البنية الاساسية لتشكلها عبر التاريخ . وقد افاد من المعطيات الاثرية الى جانب المصادر الاساسية عن المدينة واحاط باغلب المصادر الصميمة وذات العلاقة بالموضوع . وحاول ان يوظفها لشرح اهمية هذه المدينة وابعادها الحضارية وتأثيرها وتأثرها بالمدن السابقة والمعاصرة واللاحقة لها . كما انه نقد موقف المستشرقين من بعض الجوانب النقدية لهم للمدينة الاسلامية فحاول ان يفندها واحدة تلو الاخرى بأسلوب موضوعي يعتمد الدقة في الملاحظة والاستناد الى الدليل العلمي المطلق . ولم يفته الحديث عن بنيتها الداخلية والفضاء المركزي لها والتطورات التي لحقت بها . وبرهن في النهاية على ان الكوفة عاشت عصرها الذهبي في العصر الاموي رغم التطورات السياسية التي شهدتها المدينة

. وكان يصبر دائماً على وصف الكوفة بانها مدينة شبه عسكرية وان تاسيسها لم يكن لاغراض عسكرية بحته بل شبه عسكرية .

وفي الختام يظهر البحث ان دراسة هشام جعيط للمدينة الاسلامية ولا سيما الكوفة كانت من الاهمية بمكان انه اعاد تشكيل هذه المدينة حضارياً وفقاً للرؤية الاكاديمية ، والنظرة التحليلية للواقع التاريخي المعاش لها ، والبعيدة كل البعد عن التحيز او التحزب او المغالاة لذا فهي دراسة جديرة بالقراءة والبحث والمجدة.

ملخص البحث :

في النية المشاركة في المؤتمر العلمي السابع عشر الذي ينظمه مركز دراسات الكوفة - جامعة الكوفة بالتعاون مع امانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به للمدة ١٤-١٥ / ٣ / ٢٠١٨ ، ونظراً لأهمية المدينة الاسلامية وابرأاً لدورها الحضاري في المساهمة في تشكيل وجه العراق الحضاري فقد ارتأى الباحث المشاركة في هذا المؤتمر وتناول تاريخ هذه المدينة من زاوية فلسفية وحضارية وفقاً لما قدمه واحداً من ابرز المؤرخين العرب الحديثين الذين امتلكوا رؤية فلسفية وحضارية واعية لأهمية المدن الاسلامية ودورها الحضاري في بناء الحضارة الاسلامية ذلك هو المفكر والمؤرخ التونسي هشام جعيط يمثل المؤرخ جعيط اطلالة عربية مشرقة على الفكر الغربي المعاصر ، فبالإضافة الى امكانياته اللغوية (حيث يتقن من اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية فضلاً عن العربية) فقد اتسمت كتاباته بالروح العلمية ، وتوخي الموضوعية في الطرح ، والمنهج النقدي التحليلي ، متجاوزاً اسلوب السرد القصصي المحض الى محاولة سبر اغوار المصادر التاريخية ، ونقدها للتعرف على العلل التي تقف وراءها ، والمحركات الديناميكية الاساسية التي استفزت احداثه .

قدم جعيط مجموعة من الدراسات التاريخية الاكاديمية المهمة عالج خلالها قضايا مفصلية من تاريخ الاسلام ، وكانت المدينة الاسلامية واحدة من ابرز الموضوعات التي عالجها من خلال مؤلفه الضخم (الكوفة : نشأة المدينة العربية الاسلامية) والمؤلف من نحو (٥٠٠) صفحة . وهو اذ اختار الكوفة عنواناً لأبرز كتبه انما هو تعبير صادق عن اهمية هذه المدينة ووعي لدورها الحضاري ، كونها تمثل اول مدينة اسلامية يؤسسها العرب

خارج نطاق الجزيرة العربية ؛ ان لم تكن الاولى على الاطلاق. فقد تأسست سنة (١٧هـ / ٦٣٨م) .

قدّم جعيط مدينة الكوفة من زوايا عدة : إذ ناقش مسألة الفتح الاسلامي ، وتأسيس الكوفة كونها تمثل دار هجرة ثانية بعد المدينة المنورة اكثر من كونها مستقر للفاطحيين ، كذلك قدم جعيط لموقف المستشرقين من المدن الاسلامية عموماً ومدينة الكوفة بشكل خاص ، بعد ذلك يبدأ ببحث التأثيرات الحضارية للمدن السابقة على الكوفة كبابل ومكة ، فضلاً عن التأثيرات الهيلينية بعدها ناقش الادوار الحضارية التي مرت بها الكوفة ، واسماها دور الاستقرار ودور التمدن ودور التطور ودور الاستكمال ، وبحث تأثيراتها السياسية ودورها التاريخي.

لم يكتف جعيط بمعالجة هذه القضايا بل اخذ يقدم رؤية مقارنة للمدن الاسلامية الاخرى فيقارن الكوفة ببغداد ، ويبحث في هويتها ، ووجهها المدني ، واسهامات علماءها في الحضارة الاسلامية ، كل ذلك من زاوية مقارنة مع بقية المدن . كل هذا وهو يراجع المصادر الاساسية وكتب التراث وآخر ما انتجته الثقافة الغربية من اصدارات اجنبية ومخطوطات عربية ، فضلاً عن اطلاعه على الاثار والعمارة وكتب التاريخ المعاصرة لتاريخ هذه المدينة .

وعلى أمل استكمال البحث في موعده فلا يسعني الا ان اتقدم بجزيل الشكر للسادة القائمين على هذا المؤتمر وتجشمهم عناء قراءة الملخص . ومن الله التوفيق
الهوامش:

(١) ولد في تونس عام ١٩٣٥ ودرس في المدرسة الصادقية ثم وفي سنة ١٩٦٢ حصل على الإجازة في التاريخ. وتخصص في التاريخ الإسلامي ، وقام بنشر العديد من الأعمال ، صدرت سواء في العالم العربي أو أوروبا. أحرز سنة ١٩٨١ على شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة باريس. وظل حتى آخر حياته أستاذا شرفيا بجامعة تونس ، وأستاذ زائر بكل من جامعة ماك غيل (مونتريال) وجامعة كاليفورنيا ، بركلي وبمعهد فرنسا. يتولى منذ ٢٠١٢ رئاسة مجمع بيت الحكمة بتونس . من مؤلفاته : الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي، بيروت، دارالطليعة، ١٩٨٤ . والكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية، بيروت، دارالطليعة، ١٩٨٦ . الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، بيروت، دارالطليعة، ١٩٩٢ . أزمة الثقافة الإسلامية، بيروت، دارالطليعة، ٢٠٠٠ . في السيرة

النبوية. ١: الوحي والقرآن والنبوة، بيروت، دارالطليعة، ١٩٩٩. تأسيس الغرب الإسلامي، بيروت، دارالطليعة، ٢٠٠٤. ٢: تاريخية الدعوة المحمدية، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٦. أوروبا والإسلام: صدام الثقافة والحداثة، بيروت، دارالطليعة، ٢٠٠٧. في السيرة النبوية. ٣: مسيرة محمد في المدينة وإنتصار الإسلام، بيروت، دار الطليعة، ٢٠١٤.

(٢) شاكر فريد حسن ، هشام جعيط: المفكر العربي الساعي الى تطوير الحوار النقدي ، <http://www.diwanalarab.com>

(٣) مصطفى الموسوي ، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية ، (بغداد : ١٩٨٢) ، ص ٣٥٥.

(٤) المدينة الاسلامية على الموقع : <http://www.alshirazi.com>

(٥) كامل الكناني ، تخطيط المدينة العربية الاسلامية الخصوصية و الحداثة ، على الموقع :

<http://urpiplanner.blogspot.com>

(٦) للتفاصيل ينظر : فرانسوا دوس ، التاريخ المفتت من الحوليات الى التاريخ الجديد ، ترجمة : محمد الطاهر المنصوري (بيروت : ٢٠٠٩) .

(٧) ابراهيم العريس ، الكوفة لهشام جعيط ، مقالة منشورة على الموقع :

<http://ebn-khaldoun.com>

(٨) تجدر الاشارة الى ان مدينة الكوفة بناها سعد بن أبي وقاص عام (١٧هـ / ٦٣٨ م) . غربي نهر الفرات وقد بنيت بيوتها في البداية من القصب وعندما التهمت النيران أمر الخليفة عمر بن الخطاب أن تبنى بيوتها من اللبن وبني فيها مسجدا كبيرا ودارا للإمارة ثم ازدهرت بالمباني التي أنشأها بناءون من الفرس والعرب حتى غدت قصبة العراق واتخذها الخليفة علي بن أبي طالب مقرا لخلافته بعد أن نقلها من المدينة في الحجاز لكثرة أنصاره في الكوفة ، ولتوسطها في الأراضي الإسلامية الجديدة إلا أن نجاح معاوية في تأسيس الدولة الأموية حرمها من هذا المركز السياسي لتحل محلها دمشق عاصمة للدولة الأموية ثم اتخذت الكوفة مقرا للخلافة العباسية أول نشأتها حتى بني الخليفة العباسي الأول مدينة الهاشمية. للتفاصيل ينظر : سليمان ابو خضر ، المدينة الاسلامية . على الموقع

<https://sites.google.com/site/tarekharab/almdenah>:

(٩) ابراهيم العريس ، الكوفة لهشام جعيط ، مقالة منشورة على الموقع :

<http://ebn-khaldoun.com>

(١٠) ولد أبو الطيب المتنبي عام ٩١٥ للميلاد بمدينة الكوفة في العراق. نال المتنبي قدراً طيباً من التعليم في مدينة دمشق بالشام، وهو التعليم الذي تمكن من تحقيقه جزئياً بفضل موهبته الشعرية. تزعم حركة ثورية وادعى النبوة وقاد ثورة في مسقط رأسه الكوفة عام ٩٣٢. وقد قمعت هذه الحركة ووضع هو

في السجن. وفي هذه المرحلة من حياته بدأ بكتابة أولى قصائده. وكان يطمح طوال حياته لاكتساب النفوذ السياسي رغم أن طموحاته لم يكتب لها التحقيق أبداً. رحل من العراق إلى الشام ومصر وفارس بحثاً عن حاكم كبير الشأن يمكن أن يجعله عاملاً له على أحد الأقاليم. وقد لقي المتنبي مصرعه حين هاجمته قريباً من بغداد عصابة من قطاع الطرق في طريق عودته إلى العراق. " نبذة عن حياة الشاعر القدير المتنبي...الخميس ٢٩ نوفمبر ٢٠٠٧ : موقع :

<http://hashm.logu۲.com>

(١١) ابراهيم العريس ، «الكوفة» لهشام جعيط: دعوة لاستعادة المدينة الأولى في الإسلام؟ الاثني ٢٨ ربيع الثاني ١٤٣٩ هـ - ١٥ يناير ٢٠١٨ م ، مقالة منشورة على الموقع:

<http://ebn-khaldoun.com>

- (١٢) هشام جعيط ، الكوفة ، نشأة المدينة العربية الاسلامية (الكويت : ١٩٨٦) ، ص ١٨ .
- (١٣) المصدر نفسه ، ١٠٣-١٠٤ .
- (١٤) المصدر نفسه ، ص ١١٢ .
- (١٥) جعيط ، المصدر السابق ، ص ١١٤-١١٦ .
- (١٦) للتفاصيل عن موقف جعيط من الاستشراق والمستشرقين ينظر : محمد المزوغي ، الاستشراق والمستشرقون في فكر هشام جعيط ، (دار الجمل : ٢٠١٦) .
- (١٧) المصدر نفسه ، ص ١٩٣-١٩٥ ، ص ١٩٨ ..
- (١٨) جعيط ، المصدر السابق ، ص ٢٠٢-٢٠٤ .
- (١٩) المصدر نفسه ، ص ٢٠٤-٢٠٧ .
- (٢٠) جعيط ، المصدر السابق ، ٢١٤-١١٨ .
- (٢١) المصدر نفسه ، ٢١١-٢١٣ .
- (٢٢) المصدر نفسه ، ٢٦٣-٢٦٥ .
- (٢٣) المصدر نفسه ، ٢٣٣-٢٣٤ .
- (٢٤) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .
- (٢٥) جعيط ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٨-٢٨١ .
- (٢٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨٢-٢٨٥ .
- (٢٧) المصدر نفسه ، ص ٣٠٣-٣٠٤ .
- (٢٨) للتفاصيل ينظر : جعيط ، المصدر السابق ، ص ٣٥٣-٣٥٧ .
- (٢٩) المصدر نفسه ، ص ٤٢٣-٤٢٥ .
- (٣٠) جعيط ، المصدر السابق ، ص ٤٥٢ .